مجلّة الذخيرة للبحوث والدراسات الإسلامية / المجلد 5 - العدد 2 (ديسمبر2021م) [283-249]
قسم العلوم الإسلامية / جامعة غرداية / الجزائر
E-ISSN : 2588-1728 / P-ISSN : 2602-7518
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/793

الكرامة الصوفية وثالوث الإنبات والإثبات والإخبات

The Soufi karama and the trilogy of Islamic foundation, confirmation, and self-denial

د. محمذن بن أحمد بن المحبوبي

Dr. Mohameden Ahmed Mahbouby

المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية (موريتانيا)

mahbouby63@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/24

ملخص

إن هذا البحث يتناول موضوع الكرامة الصوفية تأصيلا وإثباتا وممارسة، منتهيا إلى أن الكرامة ثمرة باب الإحسان الذي هو ثالث أركان الدين. فهي من أعلى مظاهر التدريب الروحي والمجاهدة السلوكية القائمة على اجتناب المحارم، والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل، والتحري في جانب المطعم والمشرب والملبس؛ سعيا إلى الترقي في مقامات الورع والتقوى، والتماسا للطيب من الحلال، وابتعادا عن الشبهات. وقد انطلق البحث من استن اق العنوان، وتأصيل الموضوع؛ ليبسط القول في المواقف المختلفة من الكرامة، سائقا لكل رأي جملة من الأدلة والبراهين، مستعرضا نماذج من الكرامات شملت الاستقامة والفراسة والمكاشفة.

الكلمات المفتاحية: الكرامة – الصوفية – الإثبات – الإنبات – الإخبات

Abstract

This research deals with the subject of Sofi miracle linked to its origin, its confirmation and practice, concluding that the miracle is the fruit of perfect worship (Ihsan) which is the third pillar of Islam. It is one of the highest aspect of spiritual exercise and behavioural struggle based on the avoidance of prohibitions and the nearness to Allah Almighty by supererogatory deeds and by scrutinizing eating, drinking and clothing in order to progress in the scales of piety and Godliness, seeking the better of the lawful and avoiding doubtful matters. The Research starts by questioning the title, tracing the origin of the subject in order to simplify the expression in the different points of view from the miracle; each opinion has many evidences and proofs, demonstrating types of miracles that included correctness, foresight and detection.

Keywords: miracle - Sofism –confirmation-foundation - self-denial

مقدمة:

من المهم التذكير بأن موضوع الكرامات موضوع يقع على مفترق الطريق بين العقيدة والتصوف، لذلك اكتسى أهمية بالغة أخذت تتضاعف في هذه الأيام التي كثر فيها الانحراف وقل الإقبال على العمل والتقوى، فغابت الكرامة وأخذت تلتبس بغيرها من البدع والترهات، فصارت بحاجة ماسة إلى أن يرفع عنها اللبس ويدفع الغموض، لذلك أردنا في هذا الجهد أن نوصل للناس القول في شأن هذا المصطلح الصوفي الذي يرتبط بالإقبال على الله والإكثار من القرب والطاعات، كما ينبني على الإخلاص والتقوى، فماذا عن هذا المفهوم الصوفي لغة واصطلاحا؟ وكيف كانت مواقف علماء الإسلام منه، خاصة ما يتعلق بمستويات التأصيل والإنبات، والنفي والإثبات، والطاعة والإخبات؟ وهل استطاعوا في هذا الشأن أن يقدموا رؤية منسجمة واضحة المعالم والقسمات؟ أم أن مواقفهم ظلت متباعدة تعصف بها الأرواح والنسمات؟

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة يحسن بنا التنبيه إلى أن الأهداف الأساسية لهذا البحث تتلخص في:

- إيضاح مفهوم الكرامة حتى يمتاز عن غيره من المصطلحات التي تلتقي معه في نفس الحقل الدلالي كالمعجزة والمعونة والاستدراج والإهانة... والإرهاص والابتلاء....
- إعادة الاعتبار إلى الكرامة الصوفية بوصفها تربية سلوكية ومنهاجا تربويا يعنى بإصلاح النفوس وتطهير القلوب.
- إيراد الأدلة الكافية على صحة وجود الكرامات لينتبه إلى ذلك القائلون بنفيها عسى أن يعودوا إلى رشدهم.

والإشكالية الأساسية التي يطرحها هذا البحث هي محاولة الإجابة عن أسئلة من قبيل:

ما الأدلة على وجود الكرامة عقلا ونقلا؟

وما الحدود التي تنتهي إليها الكرامة الصوفية ولا تتجاوزها؟

وما المسافة التي تفصل بين الكرامة والمعجزة وبينها وبين المعونة وغيرها من نواقض العادات؟

أما خطة البحث فتقوم على ثلاثة محاور أساسية تنتظم تحتها مباحث نرتبها تباعا فيما يأتي:

المحور الأول: الكرامة وإشكال التلقي والإنبات

المبحث الأول: العنوان المناقشة والتحليل

المبحث الثاني: الموضوع المقاربة والتأصيل

المحور الثاني: الكرامة وإشكال التوقي والإثبات

المبحث الأول: موقف الإثبات والإقرار

المبحث الثاني: موقف الإعراض والإنكار

المبحث الثالث: موقف التوسط والاستبصار

المحور الثالث: الكرامة وإشكال الترقي والإخبات

المبحث الأول: الاستقامة والمراقبة

المبحث الثاني: الفراسة والملاحظة

المبحث الثالث: البشارة والمكاشفة

خاتمة تستعرض أهم النتائج التي انتهى إليها البحث.

المبحث الأول: الكرامة وإشكال التلقي والإنبات

وخلال هذا المحور نعرض لمسألتين: أولاهما تعنى باستنطاق العنوان والوقوف مع دلالات الوحدات المعجمية المؤسسة له. وثانيتهما تهتم بتأصيل هذا الموضوع واستنباته في التراث الصوفي. وذلك ما نعرض له فيما يأتي:

المطلب الأول: العنوان: المناقشة والتحليل

يقوم هذا العنوان على تركيبين نحويين أولهما نعتي "الكرامة الصوفية" وثانيهما إضافي عطفي "ثالوث الإنبات والإثبات والإخبات" وقد ربطت بينهما أداة العطف "و" التي جاءت للربط والتنسيق، فالتركيب الأول مفتتح بكلمة "الكرامة" التي هي مصدر "كرُم كرامة وكرما وكرمة محركتين فهو كريم، وكرمة عظمه ونزهه، والكريم الصفوح وله علي كرامة أي عزازة"[1].

وفي لسان العرب أن: "الكرامة اسم من الإكرام يوضع موضعه كما وضعت الطاعة موضع الإطاعة والغارة موضع الإغارة يقال كرم الرجل بضم الراء على القياس والسماع فهو كريم، والكرم ضد اللؤم ويكون في الرجل ويستعمل في الخيل والإبل والشجر"[2].

ويزيد بعضهم هذا المعنى اللغوي وضوحا مشيرا إلى أن الكرامة: "هي ما يتحف به الكريم من نزل بساحته، وحط الرحل بفنائه من نزل حسن أو جائزة سنية، وبشاشة وجه ولين جانب، وكمال وإقبال"[3].

أما الكرامة من الوجهة الاصطلاحية فهي الأمر الخارق للعادة غير المقترن بدعوى النبوة ولا بالتحدي الواقع على يد المتبع المتقي. وسيرد لها مزيد إيضاح في الصفحات اللاحقة.

1- الفيروز بادي: القاموس المحيط، دار الفكر للطباعة، بيروت 1995 ص: 1040.

2- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر دون تاريخ مادة كرم.

3- الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي: الطرائف والتلائد، المعهد الموريتاني للبحث العلمي ص: 58.

وهذه الكرامة موصوفة بـ"الصوفية" نسبة إلى التصوف وهو التخلق بالأخلاق العالية تجسيدا لمقام المراقبة ووقوفا مع الآداب الشرعية في الظاهر والباطن وهو قائم على تجريد التوحيد وحسن العشرة والإيثار[1].

وينتهي أحد المفكرين المعاصرين إلى أنه مذهب سلوكي "الغرض منه تصفية القلب من غير الله والصعود بالروح إلى عالم التقديس بإخلاص العبادة للخالق والتجرد عما سواه"(2).

وأوجز أحد أئمة السلوك المتقدمين تعريف التصوف في عبارات يسيرة قائلا: "التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني"(3).

أما التركيب الثاني فهو مفتتح بكلمة "ثالوث" وهو لغة ما كون من ثلاثة عناصر، والإنبات مصدر أنبت الشيء إذا غرسه وثبته في الأرض، والإثبات مصدر أثبت الشيء إذا رسخه في الواقع ودفع عنه احتمال النفي والوهم، أما الإخبات فمصدر أخبت إخباتا إذا أناب وأطاع وأقبل على عبادة الله إقبالا منقطع النظير.

والمقصود من العنوان جملة إيضاح أمر الكرامة باعتبارها نهجا سلوكيا غايته تطهير القلوب وتزكية النفوس والعمل على مقاربة هذا المصطلح الصوفي من ثلاثة مستويات تشمل التأصيل والتأطير والمقاربة والتنظير والممارسة والتطبيق.

ويحسن بنا بعد الوقوف مع الوحدات المعجمية المؤسسة للعنوان أن نخص مفهوم الكرامة بمزيد إيضاح وتفصيل وذلك باعتبارها أبرز الكلمات الواردة على مستوى العنوان، فمن اللازم استجلاء دلالتها وإبراز آراء العلماء بشأنها.

فمن المعلوم أن لها عدة تعريفات اصطلاحية نكتفي بإيراد بعضها فيما يأتي محاولين أن نركب من بينها تعريفا موجزا نرجو أن يكون وافيا بالغرض محيطا

1 - عبد المنعم الحفنى معجم مصطلحات الصوفية دار المسيرة بيروت ط2 1987م ص 45 (بتصرف).

2- محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، 1971 ط2 5/585.

3- المرجع السابق 5/586.

بالمقصود، فقد قدم صاحب دائرة معارف القرن العشرين تعريفا موجزا مبسطا إلى حد ما يقول: "الكرامة حدوث أمر خارق للعادة على يد رجل صالح"[1].

أما صاحب المعجم الفلسفي فيرى أن الكرامة: "ظهور أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى التحدي والنبوة يظهره الله على أيدي أوليائه"[2].

وتذهب الموسوعة الفقهية إلى أن الكرامة: "ظهور أمر خارق للعادة على شخص ظاهر الصلاح غير مقارن بدعوى النبوة والرسالة"[3].

ويعرف القشيري الكرامة محددا خصائصها وشروطها قائلا: "ولا بد أن تكون الكرامة فعلا ناقضا للعادة في أيام التكليف، ظاهرا على يد موصوف بالولاية في معنى تصديقه في حاله"[4].

ويحسن التنبيه هنا إلى أن القشيري من أوائل من استعمل مصطلح "الكرامة" ونظر لها بشيء من الموضوعية والدقة[5].

أما أبو إسحاق الإسفراييني فيضيف إلى الشروط السابقة شرطا آخر وهو أن لا تكون الكرامة مقدمة لنبوة ولا إرهاصا لها يقول: "الكرامة أمر خارق للعادة غير مقترن بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها يظهر على عبد ظاهره الصلاح علم بذلك العبد أو لم يعلم"[6].

1- المرجع السابق 124/8.

2- جميل صليبا: المعجم الفلسفي: دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979 ، 227/2.

3- مجموعة من العلماء: الموسوعة الفقهية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت ط1/1995، 216/34.

4- أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية ط1959/2 مطبعة البابي الحلبي بمصر ص: 173 .

5- أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص: 175.

6- اللالكائي: كرامات أولياء الله، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة للتوزيع، الرياض، ط1/1992 ص: 15.

ويأخذ الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي[1]، بتعريف القشيري قائلا: "الكرامة فعل ناقض للعادة في أيام التكليف ظاهر على يد موصوف بالولاية في معنى تصديقه في حاله"[2].

ويزيد النابغة القلاوي[3] هذا المفهوم وضوحا حيث يقول: "الكرامة أمر خارق للعادة غير مستند إلى أسباب ولا مقرون بتحد يجريه الله على يد من اختصه من عباده المطيعين ترقيا لهمته أو إظهارا لرتبته أو تأنيسا في وحشته أو إعانة على وقته أو زيادة له في معرفة أو امتحانا له في حاله ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة"[4]، ويحدد الشيخ سعد أبيه[5]، الكرامة قائلا إنها: "خرق عادة جار على يد ملتزم اتباع سنة نبيه، بلا دعوى نبوه وهي للأولياء"[6].

بالمقارنة بين هذه التعريفات نستخلص ثوابت في مفهوم الكرامة تتقاطع فيها جل التعريفات وهي "خرق العادة"، واشتراط "الصلاح والولاية" وتأكيد "عدم الاقتران بالتحدي ودعوى النبوة" أما نقاط الاختلاف فتتجلى في تركيز بعضهم على جوانب لم يولها بعضهم الآخر كبير عناية مثل إلحاح القشيري على اشتراط التكليف والنصر والتأييد، وتعويل النابغة على انتفاء الأسباب مع إبراز الأهداف والغايات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القشيري والقلاوي يتقاطعان في حديثهما عن غايات الكرامة وأهدافها مع صوفي متقدم هو السراج الطوسي الذي يرى أن الكرامة بالنسبة

1- هو الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي المتوفى سنة (1241هـ/1826م) عالم وصوفي جليل أخذ عنه علماء منهم الشيخ سيدي الكبير، له مؤلفات معظمها في التصوف منها "الطرائف والتلائد".

2- محمد الكنتي: الطرائف والتلائد، مرجع سابق، ص: 58.

3- هو النابغة القلاوي (1150هـ/1245م) عالم وشاعر جال في البلاد طلبا للعلم، وأخذ عن أحمد بن العاقل، له منظومة بواطليحية في الكتب المعتمدة ومنظومات في الفقه.

4- النابغة الغلاوي: "غرفة منجم في حل مشكلات إن همي" مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.

5- سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل (ت1335هـ) عالم وشيخ في التصوف القادري نشر الأوراد في بلاد السودان، وكثر مريدوه في غرب إ فريقيا، له ديوان شعري، ومجموعة من المنظومات.

6- سعد أبيه: كشف اللبس عن المسائل الخمس، مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.

للأولياء هي ضرب من التدريب الصوفي والتربية الروحية والتهذيب الخلقي، يقول: "إن الأولياء يحتجون بذلك -يعني الكرامة- على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن ولا تضطرب ولا تجزع (...) فالأولياء يظهر الله تعالى لهم الكرامات تأديبا لأنفسهم وتهذيبا لها"[1].

وبإلقاء نظرة سريعة على هذه التحديدات المتقدمة لمفهوم الكرامة يتعين إبراز الفروق الأساسية بين الكرامة وبين بعض المفاهيم الأخرى الخارقة للمألوف التي قد تلتبس بها فيلزمنا إذن أن نحدد هذا المفهوم تحديدا دقيقا حتى يمتاز عن غيره من الكلمات التي تسبح معه في نفس الحقل الدلالي مشترك كالمعجزة[2]، والمعونة[3]، والإرهاص[4]، والسحر[5]، والابتلاء[6]، والإهانة[7]، والاستدراج[8]، والشعوذة[9]،

1- السراج الطوسي: "اللمع في التصوف" صححه نيكلسون مطبعة ابريل ليدن 1914هـ ص: 315.

2- المعجزة: خرق عادة من نفس خيرية داعية إلى الخير، مقارن بدعوى النبوة متحدى به قبل وقوعه. كشف اللبس للشيخ سعد أبيه (مخطوط).

3- المعونة: وهي الخارق الذي يظهر على أيدي عوام المسلمين ليخلصهم الله تعالى به من محن الدنيا. كشف اللبس (مخطوط)..

4- الإرهاص: هو ما يظهر من الخوارق قبل دعوى النبوة تأسيسا لها أو تأنيسا لصاحبها. كشف اللبس (مخطوط)..

5- السحر: هو خرق عادة يتم على يد نفس شريرة ناشئ عن مداومة المحرم، وهو مؤلف من كلام. كشف اللبس (مخطوط)..

6- الابتلاء: وهو الخارق يأتي به الدجال بعد ظهوره. كشف اللبس (مخطوط).

7- الإهانة: وهي مؤكدات تكذيب الكاذب كما وقع لمسيلمة دعا لأعور أن يزول عوره فعمي. كشف اللبس (مخطوط).

8- الاستدراج: وهو الخارق الذي يظهر على يد من لم يستقم على الشرع، فكلما جدد معصية جدد الله له نعمه. كشف اللبس (مخطوط).

9- الشعوذة: وهي خفة في اليد وأخذ كالسحر يرى الشيء بخلاف ما هو عليه. كشف اللبس (مخطوط).

والعرافة والكهانة[1]، وغير ذلك من خوارق العادة ونواقض المألوف، فهذه المذكورات تشترك مع الكرامة في خاصية "خرق المألوف" إلا أنها تختلف عنها في المقاصد والأسباب اختلافا جذريا فآية المعجزة "النبوة والرسالة" وعنوان الكرامة "الولاية" و"الصلاح" ومجال المعونة "عوام المسلمين" وميزة الإرهاص "التبشير بالنبوة" وخاصية السحر "خبث النفس والإدمان على المعصية" وسمة الإهانة "التقريع" ورمز الاستدراج "عدم الاستقامة على الدين" وعلامة الشعوذة "التدليس والتمويه" وشرط الابتلاء "حضور الدجال" وشعار العرافة "الرجم بالغيب".

وبذلك نعلم أن أقرب هذه المصطلحات إلى الكرامة هي المعجزة فيلزمنا في هذا المقام التفريق بينهما منبهين إلى تقاربهما في الدلالة والمعنى وسنبدأ هذا التفريق برأي علي السراج الطوسي الذي عول في الفصل بين هاتين الكلمتين على عدة وجوه أولها وجوب إظهار المعجزة واستحسان كتمان الكرامة، وثانيهما أن المعجزة للمحاجة والإقناع وتحدي المنكر، بينما الكرامة لتثبيت الأفئدة وإنارة القلوب، وثالثها: التأكيد على أن الزيادة في المعجزات نصر وتأييد، بينما هي في الكرامات مدعاة إلى التهلكة والابتلاء، يقول: "من أنكر ذلك - يعني الكرامات - إنما أنكرها احترازا من أن يقع وهن في معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد غلط قائل هذا فبين الأنبياء والأولياء فرق من جهات شتى فالأنبياء متعبدون بإظهار المعجزات والاحتجاج بها على من يدعونهم، والأولياء متعبدون بكتمان ذلك عن الخلق، وإذا أظهروا شيئا من ذلك فقد خالفوا الله تعالى وعصوه، والوجه الآخر في الفرق بينهم أن الأنبياء يحتجون بمعجزاتهم على المشركين لأن قلوبهم قاسية، والأولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن.

والوجه الثالث في الفرق أن الأنبياء كلما زادت معجزاتهم كان أتم لمعانيهم وأثبت لقلوبهم، وهؤلاء الذين لهم الكرامات من الأولياء كلما زيد في كراماتهم يكون وجلهم أكثر وخوفهم أزيد حذرا من أن يكون ذلك من المكر الخفي والاستدراج"[2].

1- العرافة والكهانة: وهو الرجم بالغيب والقضاء به. كشف اللبس (مخطوط).

2- السراج الطوسي: اللمع، مرجع سابق، ص: 316.

أما أبو بكر الباقلاني ففي تفريقه بين المصطلحين يلح على ضرورة اقتران المعجزة بدعوى النبوة وخلو الكرامة من ذلك، يقول: "والكرامات تكون للأولياء كما تكون للأنبياء ولا تكون للأولياء معجزة، كما أن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها"[1]، ويذهب القشيري هذا المذهب نفسه قائلا: "فشرائط المعجزة أو أكثرها توجد في الكرامة إلا هذا الشرط الواحد - يعني التحدي-"[2].

ونصل إلى عبد الرحمن بن خلدون الذي يركز هو الآخر على عنصر التحدي يقول: "التحدي هو الفرق بين المعجزة وبين الكرامة والسحر؛ إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق فلا وجود للتحدي إلا إذا وجد اتفاقا، وإن وقع التحدي في الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فإنما هي على الولاية وهي غير النبوة"[3].

ولا يكتفي ابن خلدون بعنصر التحدي بل يضيف إليه عناصر أخرى استخلصها من رأي المتكلمين في الموضوع لينتهي إلى وضع حد فاصل بين المعجزة والكرامة، يقول: "وفارق الكرامة عن المعجزة عند المتكلمين راجع إلى أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء والنفوذ في الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى، وتكليم الملائكة، والطيران في الهواء، وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء"[4].

ومما سبق ننتهي إلى أن الكرامة خرق للعادات والأعراف وتجاوز للمألوف من السنن الكونية والنواميس الاجتماعية يتم على يد مؤمن بالغ متصف بالولاية والصلاح تأييدا له في حاله أو دفاعا عنه في أوحاله فهي إذن عون إلهي وهبة لدنية وامتياز رباني يمنحه الله المضطر أو المظلوم من عباده المتقين المخلصين، وهي غير مقترنة بدعوة النبوة ولا بالتحدي.

1- النووي: بستان العارفين، دار الترمذي ط1/1992 ص: 71.
2- المرجع السابق، ص: 77.
3- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، مطبعة مصفى محمد بمصر، شارع محمد عالي ص: 94.
4- المرجع السابق، ص: 94.

المطلب الثاني: الموضوع المقاربة والتأصيل:

لقد اتفق جمهور العلماء على إثبات الكرامة عقلا ونقلا وعرفا، كما اتفقوا على عدم اختصاصها بأمة دون أخرى أو اقتصارها على زمان معين، وتشهد لذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسير الصحابة والتابعين وسلف صالح المؤمنين، وقد تدرجت أدلة الإثبات في تناولنا لهذا الموضوع حسب المستويات الآتية:

1. الآيات القرآنية الكريمة:

ففي القرآن العظيم - حسب علمنا المحدود - أربع سور على الأقل وتتناول الكرامة كظاهرة خارقة للعادة تجري على يد عبد صالح غير متصف بالنبوة على الراجح، ولا مواجه بالتحدي، ففي سورة آل عمران آية تتحدث عن تكريم مريم ابنة عمران، بخرق نواميس المكان والزمان لها، وذلك بمنحها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء بغير كسب ولا سبب مباشر، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران 37].

وتوج هذا التكريم الأولي بتكريم آخر جاء في ساعات العسرة والحرج ولحظات الانقطاع عن الأمداد والأسباب في سورة مريم حينما انتبذت الصديقة مكانا قصيا وأمرت ساعتئذ بهز أصل الشجرة الثابت ليساقط الرطب جنيا، ومعلوم أن هذا الفعل لا يؤدي عادة إلى نتيجة لضعف المرأة الحامل، وثبات جذع الشجرة ويبسها على ما ذكر المفسرون[1].

وهكذا فقد قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [سورة مريم 25] وكان الأمر كذلك.

وفي سورة الكهف يتحدث القصص القرآني عن الكرامات في موضعين عرض في أولهما لأمر فتية الكهف خلال سبع عشرة آية من الآية التاسعة حتى الآية السادسة والعشرين، فهذه الآيات البيات تناولت خرق العادة لهؤلاء النفر المؤمنين في أمور عديدة مها ازورار الشمس عن كهفهم وتقلبهم خلال نومتهم الطويلة ذات اليمين

1- القرطبي: 95/1 الطبري 245/3.

وذات الشمال صونا لأجسادهم من التغير، وبعثهم بعد تسع وثلاثمائة سنة من النوم ليكونوا آية وعبرة.

أما في ثاني الموضعين فتعرض السورة لقصة الخضر مع موسى وما تنطوي عليه من العجائب والخوارق وذلك خلال ثماني عشرة آية غطت ما بين ثلاثة وستين إلى إحدى وثمانين من آيات السورة المذكورة، وقد استعرضت هذه الآيات أفعالا خارقة للمألوف لا يقبلها ظاهر الشرع ولا تقرها بداهة العقل، لذلك استنكرها موسى عليه السلام واعتبرها "شيئا إمرا" بل "شيئا نكرا" وهذه الأفعال هي خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، إلا أن الخضر على الرغم من ذلك كله كان يملك لأفعاله تسويغا كافيا للرد على موسى وإقناعه بشرعية هذه التصرفات وإمكان تأويلها، فقد قال سبحانه وتعالى على لسانه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [سورة الكهف 82] وإن كانت هذه الآية جعلت بعض المفسرين يجزم بنبوة الخضر غير أن المعول عليه صلاحه وولايته واختصاصه ببعض العلوم اللدنية[1].

أما في سورة النمل فإننا نقف على مسابقة متميزة ينظمها سليمان عليه السلام لاختيار أقدر ملئه على إحضار عرش بلقيس في وقت قياسي، قال تعالى على لسانه: ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل: 38] وإثر هذا السؤال أعرب الجني عن قدرته على الإتيان بالعرش قبل أن ينفض المجلس لتنتهي المباراة بفوز ذلك الذي عنده علم من الكتاب لأنه مدعوم بكرامة إلهية، لذلك

1- العلوم اللدنية: هي المنسوبة للدن والمقصود بها المواهب التي هي من الله لا ينسب منها شيء لغيره، لأن ما جرت العادة بحصول مثله من كسب العبد ينسب له وأما ما كان بالغا في النفاسة ينسب إلى الله إشارة إلى أنه لا يمكن حصوله من غيره عادة لعزته، والعرب إذا استعظمت شيئا نسبته إلى الله والملائكة أو الجن، فالعرب تقول مثلا "لله دره" ومعنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ أي من عندنا، وهذا متعلق أهل الصوفية وأهل السلوك في إثبات العلم اللدني، وهو إلهام المعرفة بالحقائق الغيبية وغيرها، وقال بعضهم: "العلم اللدني يراد به العلم الحاصل بلا كسب ولا عمل للعبد فيه، سمي لدنيا لحصوله من لدن ربنا لا من كسبنا" انظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني (19/1 ط1325/1هـ والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن 150/12 مرجع سابق.

أعلن عن قدرته على الإتيان به في أقل من طرفة عين خارقا بذلك نواميس المكان والزمان، قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [سورة النمل: 4].

ولا شك أن هذه الآيات السابقة تحيل على مجموعة من الكرامات فاز بها هذا الذي عنده علم من الكتاب وهو كما يقول المفسرون رجل صالح من بني إسرائيل يدعى آصف بن برخيا، فالآية تكرس حصول الكرامات بالنسبة للبشر والإنس العاديين وإن كانت في مستوى آخر تشير إلى ما للجن من حضور في هذا الجانب حيث استطاع ذلك العفريت أن يحضر عرش بلقيس في وقت يسير، لكن الذي عنده علم من الكتاب كان أسرع منه بكثير، فكرامته إذن أقوى وأمكن، كما نبه إلى ذلك المفسرون وعلماء السلف.

ونكتفي هنا بالتوقف عند الآية الواردة في سورة آل عمران لتكريم مريم فقد أكد معظم المفسرين أن هذه الآية دليل للكرامة وبرهان عليها وهذا رائد المفسرين محمد بن جرير الطبري يروي بسنده إلى ابن عباس أن معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ هو عنب في مكتل في غير حينه[1]، وروى بسنده أيضا عن الضحاك أنه يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف[2].

ويتواتر توجيه الآية المتقدمة على هذا النحو في مختلف محطات التفسير لينتهي إلى محمود الألوسي الذي يتخذ من الآية دليلا على جواز الكرامة للأولياء: "لأن مريم لا نبوة لها على المشهور وهذا هو الذي ذهب إليه أهل السنة وأهل الشيعة وخالف في ذلك المعتزلة"[3].

1- الطبري: جامع البيان على تأويل القرآن، مطبعة الحلبي 1954، 3/245.
2- المرجع السابق، ص: 245.
3- الألوسي، روح المعاني، مرجع سابق 3/141.

2. الأحاديث النبوية الشريفة:

تناولنا بعض الآيات القرآنية المثبتة للكرامة، والآن نعرض لإثباتها في الحديث النبوي الذي يمكن أن نصادف به نماذج غير يسيرة، وهي تشير في جملتها إلى جوانب من تكريم صالحي المؤمنين، وتذكر أولياء الله بخير، كما تنبه إلى عينات من الامتيازات الإلهية التي قد ينالها المتقون من عباد الله في بعض الأحيان؛ إذ يهبهم الله منحا لدنية وخوارق عجيبة، وسنسوق في هذا المقام أحاديث نرمي من ورائها إلى تأصيل الجانب الخارق في الثقافة الإسلامية وتأطيره، فأول هذه الأحاديث حديث أصحاب الصخرة الذي اتفق عليه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو حديث طويل نكتفي بإيراد معانيه دون ألفاظه وخلاصته أن ثلاثة رهط آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، وانحدرت صخرة فسدت عليهم الغار فسألوا الله بصالح أعمالهم فانزاحت الصخرة عنهم فخرجوا يمشون[1]، ويفهم من هذا الحديث إمكانية التعاون بين عباد الله الصالحين لتفريج الكرب وكشف السوء بالتضرع إلى ألله والتوسل بصالح الأعمال، وذلك لأن هؤلاء الثلاثة قاموا يجأرون إلى الله ويرجون رحمته، كل حسب إخلاصه وكسبه فحصل لهم المراد تدريجيا حتى ليمكن أن نتصور تقسيما للعمل وتوزيعا للأدوار بين أفراد هذه الجماعة سعيا إلى إزاحة هذه الصخرة التي سدت الباب، وذلك بنسب متقاربة وحصص متشابهة، كما يستخلص من هذا الحديث الارتباط الوثيق بين الكرامة وبين العمل الصالح، أما الحديث الثاني في هذا السياق فهو ما أخرجه البخاري في باب التواضع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله عز وجل قال من عادى لي وليا فقد آذيته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده

1- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرا فترك الأجير أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد، الحديث رقم 2215 ومسلم، كتاب الرقائق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، الحديث رقم 2743.

التي بطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت من شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته"[1].

فهذا الحديث القدسي آية التنويه بالولاية ودليل التكريم الإنساني وحجة واضحة لمحاربة أعداء أولياء الله، وبرهان على أن التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة هو إكسير المحبة وجالب الكرامة وشرطها الأول. زد على ذلك امتياز عباد الله المخلصين باستجابات غير مشروطة وحمايات ربانية فورية ومنح لدنية وضمانات إلهية خارقة للمألوف، ولعل هذا ما جعل ابن حجر يذهب إلى أن هذا الحديث أصل في السلوك إلى الله والوصول إلى معرفته ومحبته وطريقته[2].

ونصل إلى الحديث الذي يصرح بكثرة الأولياء من خلال أداة الاستفهام التكثيرية العددية "كم" مشيرا إلى تواضعهم الصوفي وبساطتهم في الهيئة والملبس "ضعيف متضعف ذي طمرين" منتهيا إلى أن الدعاء منهم مستجاب، والقسم مبرور ولفظ الحديث كما رواه أبو نعيم بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "كم من ضعيف متضعف ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك"[3]، وفي رواية: "رب أشعث ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله عز وجل لأبره"[4]، ولا ننسى هنا حديث إلهام عمر وتحديثه الذي يشير إلى أنه كان ملهما فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه

1- أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب التواضع (8/482-483) انظر صحيح البخاري شرح وتحقيق: الشيخ قاسم الرفاعي، دار القلم، بيروت لبنان (د،ت) أخرجه صاحب الباري في باب التواضع (340/11) وورد كذلك في الأحاديث القدسية، منشورات دار النصر، بيروت (ص: 81) د،ت، الحديث رقم 6502 وفتح الباري 341/2.

2- ابن حجر، فتح الباري، دار المعرفة - بيروت، 1379، 340/11

3- المرجع السابق والصفحة.

4- المرجع السابق والصفحة.

وسلم: "فقد كان في من خلا من الأمم ناس محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فهو عمر بن الخطاب"[1].

أما ما ثبت من كرامات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكثير ونكتفي هنا بالإشارة إلى كرامات بعضهم مثلما أخرج أحمد في مسنده عن أنس "أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر كانا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة حندس فلما خرجا أضاءت عصا أحدهما فجعلا يمشيان بضوئها فلما تفرقا أضاءت عصا الآخر"[2].

وروي أيضا أن خبيبا كان أسيرا عند المشركين بمكة – شرفها الله تعالى – وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة. وعامر بن فهيرة قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع، قال عروة يروى أن الملائكة رفعته[3]، وغير هذا كثير في زمن الصحابة والتابعين[4].

3. النماذج التطبيقية:

ونفتتح هذه النماذج بقصة أويس القرني مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أسير بن جابر قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتت عليه أمداد اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال ثم من مراد؟ قال: نعم. قال ثم من قرن؟ قال نعم. قال: ألك والدة أنت بها بر؟ قال: نعم. وكان بك وضح فبرئت منه إلا موضع الدرهم؟ قال: نعم. قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يأتي عليكم أويس بن عامر من أمداد اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص

1- أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، الحديث رقم 3469 وابن حجر: الفتح 470/4 ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحديث رقم 2398.

2- الحديث أخرجه أحمد في مسنده 890/3 الحاكم في المستدرك 288/3 قال شعيب الأرنؤوط: صحيح على شرط مسلم.

3- ابن تيمية: مجموع الفتاوي، 388/11.

4- المرجع السابق من الصفحة 311-335.

فبرئ منه إلا موضع الدرهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله تعالى لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك"[1].

وقد أفاض الشيخ يوسف النبهاني في الحديث عن هذا الموضوع مفصلا بشأنه القول عبر كتابه "جامع كرامات الأولياء" معددا طبقات من الأولياء كثيرة، معززا ذلك بجملة من كراماتهم واستعراض ثلة من رجال التصوف من فجر التاريخ الإسلامي حتى أيامه. وزيادة على ما تقدم نجد الشيخ النبهاني ينقل عن الإمام اليافعي ميل كثير من العلماء إلى جواز الكرامات والخوارق، يقول: "ونقل الإمام اليافعي عن كثير من أكابر أهل السنة جواز وقوع جملة من خوارق العادات في معرض كرامات الأولياء وهم إمام الحرمين وأبو بكر الباقلاني وأبو بكر بن فورك وحجة الإسلام الغزالي وفخر الدين الرازي وناصر الدين البيضاوي وناصر الدين الطوسي، وحافظ الدين النسفي، وأبو القاسم القشيري، فهؤلاء تسعة أئمة ممن لهم تصنيف محقق أو كلام معتبر في العقائد من أهل السنة اقتصرت عليهم ولا حاجة إلى كثرة التعداد فبعض هؤلاء المذكورين فيه كفاية"[2].

وبذلك نكون قد أصلنا جانبا – ولو قليلا – من خطاب الكرامة والإلهام داخل جدران الثقافة العربية الإسلامية حيث تناولنا بعض نماذجه الواردة في القرآن الكريم والحديث الشريف دون أن ننسى حضور هذا الخطاب في صدر هذه الأمة وسلفها الصالح.

1- الحديث رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أويس القرني رضي الله عنه، تحت رقم 2542 وأحمد في مسنده 38/1 وابن سعد في الطبقات 163/6 والحاكم في المستدرك 403/3 بألفاظ مختلفة.

2- النبهاني: جامع كرامات الأولياء، مرجع سابق، 30/1.

المبحث الثاني: الكرامة وإشكال التوقي والإثبات:

ونشير هنا إلى أن السلف الأول من المتصوفة وأهل العلم اختلفوا في شأن الكرامة كثيرا فمنهم من أعرض عنها ونفاها أصلا، ومنهم من بالغ في إثباتها وأكثر الحديث عن نماذجها، ومنهم فريق ثالث مال إلى الوسطية والاعتدال، وسنفصل القول في رأي هؤلاء جميعا، مستعرضين جملة من حججهم وآرائهم.

المطلب الأول: موقف الإثبات والإقرار:

وتتصدر هذا الموقف طائفة أهل السنة والجماعة والشيعة على اختلاف مذاهبهم، فيرى القاضي أبو بكر الباقلاني (338هـ/403م) "أن الكرامة تكون للأولياء ولا تكون لهم معجزة"[1]، ويذهب رائد التنظير الصوفي في الفكر الإسلامي أبو القاسم القشيري (377هـ/445م) إلى إمكان حصول الكرامة تشجيعا للأولياء وتثبيتا لنفوسهم، يقول: "ظهور الكرامات على الأولياء جائز لأنه أمر موهوم حدوثه في العقل لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول فواجب وصفه تعالى على إيجاده، وإذا وجب كونه مقدورا لله سبحانه فلا شيء يمنع جواز حصوله (...) وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله[2].

ويميل الجويني إمام الحرمين (419هـ/478م) إلى تعزيز موقف سابقيه مبينا رأي الجمهور الذي يجمع على جواز وقوع الكرامة منتهيا إلى أن "الذي صار إليه أهل الحق جواز انخراق العادة في حق الأولياء"[3].

ونصل إلى شهاب الدين السهروردي (539هـ/632م) الذي يثبت للأولياء انواعا من الكرامات مؤكدا ارتباطها بالمعجزات، يقول: "وقد تكون للأولياء كرامات (...) وكراماتهم من تتمة معجزات الأنبياء"[4] أما الإمام القرطبي ت (؟/671م) فيورد في جامعة آراء هامة في الموضوع ففي أثناء حديثه عن قصة الخضر مع موسى

1- المرجع السابق، ص: 96.

2- النبهاني: جامع كرامات الأولياء، مرجع سابق، ص: 97.

3- المرجع السابق، ص: 98.

4- يوسف النبهاني: جامع كرامات الأولياء، مطبعة الحلبي بمصر، ط1962/1، 30/1.

عليهما السلام ساق حججا كثيرة تثبت كرامات الأولياء مشيرا إلى أنها من الأمور الواقعة و المشاهدة، يقول: "كرامات الأولياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار الثابتة والآيات المتواترة لا ينكرها إلى المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد"[1].

ونمر على زكرياء بن شرف النووي (631هـ/676م) الذي تجاوز إثبات الكرامة إلى التأكيد على استمرارها عقلا ونقلا، يقول: "اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات الكرامات للأولياء وأنها واقعة مستمرة موجودة في الأعصار، ويدل عليه دلائل العقول وصرائح النقول، فاتضح من ذلك ثبوت الكرامة وشيوعها مدى الأحقاب"[2].

أما أحمد بن تيمية (661هـ/728م) فقد خصص لهذا الموضوع بحثا مستفيضا ضمن كتابه "الفتاوي" مناقشا مفهوم الكرامة والمعجزة والولي والولاية، إذ استغرق الحديث عن هذه المسائل ما يقارب نصف الألف من الصفحات[3] وخلاصة هذا البحث أنه أثبت للأولياء الكرامة محددا مقاصدها رابطا بينها وبين مقاصد المعجزة، يقول: "فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد صلى الله عليه وسلم فيقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله تعالى كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيهم صلى الله عليه وسلم كذلك"[4]، غير أن ابن تيمية يضع حدودا للكرامة تنتهي إليها، فاصلا بينها وبين المعجزة جاعلا بينهما مسافة غير يسيرة، يقول: "ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات الأنبياء والمرسلين كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم في بعضها كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم"[5].

1- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث، بيروت 1995 ، 28/12.
2- النووي: بستان العارفين، مرجع سابق، ص: 71.
3- أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوي، مكتبة المعارف، الرباط، 196/11-702.
4- المرجع السابق، 282/11.
5- أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوي، مرجع سابق، 285/11.

وقد تكلم ابن السبكي (727هـ/771م) عن الكرامات كلاما معتدلا ومنصفا إلى حد ما حيث يمم سواء السبيل رادا على المعتزلة مستعملا خطابا جدليا يركن إلى أجواء المحاجة والإقناع، يقول: "معاذ الله أن يتحدى نبي بكرامة تكررت على يد ولي بل لابد أن يأتي النبي بما لا يوقعه الله على يد الولي وإن جاز وقوعه فليس كل جائز في قضايا العقول واقعا، ولذا كانت مرتبة النبي أعلى وأرفع من مرتبة الولي وكان الولي ممنوعا مما يأتي به النبي على الإعجاز والتحدي أدبا مع النبي"[1].

ويتخذ ابن خلدون (734هـ/808م) من الكرامة موقفا واضحا ففي مقدمته يعرض لذكر خوارق المتصوفة محاولا تفسير بعض إشراقاتهم العرفانية منتهيا إلى إثبات الكرامة للأولياء، يقول: "وحصول ما يحصل في معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من أول الأمر لأنه إذا قصد ذلك كان الوجهة فيه لغير الله، وإنما لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفقة، فإنها في الحقيقة شرك، وكثير منهم يفر إذا عرض له وحصول ذلك لهم معروف، ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث عن الخواطر فراسة وكشفا، وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم"[2]، وعبر هذا الاستشهاد يكشف ابن خلدون عن قيمة الكرامة محددا بعض المصطلحات الصوفية التي ترافقها كالكشف والفراسة.

وأما جلال الدين السيوطي (851هـ/911م) فقد صرح بمشروعية الكرامة للأولياء معتمدا رأي القشيري المتقدم الذي وضع لها حدودا تنتهي إليها، يقول[3]:

[الرجز]

حق كرامات للأولياء قال القشيري بلا انتهاء
لولد بدون والد وما أشبهه وقيل هذا المعتمى

1- اللالكلائي: كرامات أولياء الله، مرجع سابق، ص: 20 من مقدمة التحقيق.
2- ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص: 110.
3- محمد الحسن بن احمد الخديم: سلم المطالع، مطبعة النجاح، ط1/1998 ص: 515-516.

أما علماء الشناقطة فإنهم قد أثبتوا الكرامة واعتبروها دليل الفتح والتكريم وعنوان الكشف والتمكين، ولعل أقدمهم رأيا في الموضوع الشيخ محمد بن محم سعيد اليدالي[1]، الذي أكد ثبوت الكرامة في العقل والنقل موسعا مجالها ليبقى مفتوحا غير محدد ولا محصور، يقول: "اعلم أن الكرامة ثابتة عقلا ونقلا من غير إحصاء ولا حصر"[2].

ويخصص المختار بن بونه[3]، للحديث عن الكرامة عدة أبيات من منظومته الأشعرية "وسيلة السعادة" مؤكدا مشروعيتها معددا بعض نماذجها داعيا في الوقت نفسه إلى نوع من الوسطية والاعتدال بشأنها يقول[4]: [الرجز]

كرامة الولي حق وظهر منها كثير كرسالة عمر
لنيل مصر وسماع ساريه منه الكلام في البلاد النائيه
كالكشف والعلم بلا تعلم وكالوصول لبلاد الحرم
بحيث قد كانوا بلا تكلف وكل أمر خارق مشرف
لكن من أوجب هذا أفرطا في حقهم ومن أباه فرطا

ويأتي الشيخ سيدي محمد الكنتي (ت: 1244هـ) ليبسط القول في أمر الكرامة مؤكدا سيرورتها في الزمان، يقول: "لتعلم أيها الناظر المنصف والأخ الصادق المسعف أنه لم يخل زمان من ولي من أولياء الله تعالى يحفظ الله به البلاد والعباد ويجري على يديه الزوائد والإمداد يخلع عليه خلع الاختصاص ويتوجه بتاج الكرامة والإخلاص"[5].

1- هو محمد بن سعيد اليدالي (1096هـ/1166هـ) عالم من رواد الحركة التأليفية في البلاد، كان شاعرا. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص: 223.

2- محمد اليدالي: فرائد الفوائد: مخطوط بحوزة الأستاذ الراجل بن أحمد سالم بانواكشوط.

3- هو المختار بن بونه الجكني (1100-1200هـ) كان شيخ محظرة، له مؤلفات منها: "الجامع بين التسهيل والخلاصة المانع من الحشو والخصاصة". الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص: 277.

4- المختار بن بونه، وسيلة السعادة، مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.

5- محمد الكنتي: الطرائف والتلائد، مرجع سابق 54/1 .

وفي هذا السياق المثبت للكرامة تندرج جهود الشيخ سعد أبيه[1]، الذي صرح بجواز الكرامة عقلا وثبوتها شرعا وتواترها عرفا إلى درجة لا تدع فسحة للشك أو الريب، يقول: "اعلم أن الكرامة جائزة عقلا ثابتة شرعا، واقعة نقلا مفيدا لليقين لبلوغه حد التواتر"[2].

ونتهي إلى رأي محمد فريد وجدي الذي يجعل الخوارق - ومنها الكرامات - حتمية الوقوع إذا تغلب إشراق الروح على كثافة المادة، يقول: "الخوارق في نظرنا ليست من الأمور الممكنة فقط، بل من الأمور الضرورية الملازمة لبعض الحالات العالية التي تكون عليها الروح الإنسانية فإن هذه الروح فينا نفحة من نفحات الحق سكنت هذا الجثمان حينا من الزمان فستر جلالها هذا الجسد الكثيف، فمن عرف هذا السر ففتح في قلبه نافذة يطل منها عليها انبعث عليه من نورها ما يجعله روحا صرفة فتصدر على يديه أمور خارقة للعادة لأن للروح تسلطا لا حد له على الماديات يستحيل أن تصدر الخوارق على يديه"[3].

والمتتبع لهذا الاستشهاد يدرك أن صاحبه قد أنزل الكرامة منزلة عالية وجعلها عامة؛ إذ ربطها بصفاء النفس وصلاحها جاعلا ذلك سرا من أسرار حصول الكرامة ومصدرا من مصادر المعرفة الإنسانية.

المطلب الثاني: موقف الإعراض والإنكار:

وتتصدر هذا الموقف المنكر طائفة أهل الاعتزال، وأبو محمد بن حزم الظاهري وكذلك القدرية الذين وصفهم البغدادي قائلا: "أنكرت القدرية كرامات الأولياء لأنهم لا يجدون في أهل بدعتهم كرامة"[4]، فهذه الطوائف جميعا تجرد الولي من صنوف الكرامة وتقصر الأفعال الخارقة للعادة على الأنبياء.

1- هو الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل: شيخ في التصوف القادري وإمام محظرة (ت1335هـ) له مجموعة من الأنظام والمؤلفات منها "حاطب ليل" و"كشف اللبس عن المسائل الخمس" المجموعة الكبرى ليحيى بن البراء (118/2).

2- سعد أبيه، كشف اللبس عن المسائل الخمس، مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.

3- محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، مرجع سابق، ص: 124.

4- اللالكائي: مرجع سابق، ص: 18.

وقد أوضح الرازي رأي المعتزلة في الموضوع ذاكرا احتجاجاتهم التي تبدو غير منسجمة لا مع الواقع ولا مع الحقيقة، فهي لا تفرق بين المعجزة والكرامة فقد "احتجوا على امتناع الكرامات لأنها دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد مع غير الأنبياء"[1].

ويبسط الألوسي القول في هذه المسألة عند شرحه للآية السابعة والثلاثين من سورة آل عمران ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حيث أورد رأي اثنين من المعتزلة ينفيان دلالة هذه الآية على إثبات الكرامة لمريم محاولين إلحاق هذا الخارق بمعجزات عيسى وزكرياء عليهما السلام، يقول: "وخالف ذلك - أي إثبات الكرامة - المعتزلة وأجاب البلخي منهم عن الآية بأن ذلك كان إرهاصا وتأسيسا لنبوة عيسى عليه السلام"[2].

ومن بين المعاصرين من أنكر الاستدلال على الكرامة بآية آل عمران المتقدمة كأحمد المصطفى المراغي الذي نفى وجود أي مسند سني يركن إليه مخالفا أئمة الفقه والتفسير، معولا على رأيه معليا من قيمة العادات والتقاليد رابطا مسألة "وجود الرزق" بالأعراف، يقول: "روي أنه - أي زكرياء - كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء وليس لدينا مستند صحيح من كتاب أو سنة يؤيد هذه الروايات الإسرائيلية (...) وقد جرى العرف في كل زمان بإضافة الرزق إلى الله وليس في هذا دلالة على أنه من خوارق العادات"[3]، ويبدو الرجل في هذا الاستشهاد حادا فقد اعتبر تفسيرات العلماء الثابتة لهذه الآية نوعا من الإسرائيليات.

والمتصفح لكتب التفسير وأهل الكلام يرى أن علماء السنة والجماعة كانوا بالمرصاد لمنكري الكرامة، فإن كان هاجس الاسفرائيني الكبير في الإنكار هو الخوف من التباس الكرامة بالمعجزة فإن ابن خلدون يدفع الهاجس ويزيله بما لا يدع مجالا

1- الرازي: تفسير الرازي، دار الفكر، بيروت - لبنان 1985 ، 4/22-23.
2- الألوسي: روح المعاني، دار إحياء التراث، بيروت، 3/140.
3- أحمد المراغي: تفسير المراغي، دار إحياء التراث، بيروت 1974 ، 3/145.

للسك فـ"المعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي وهو كاف"[1]، كما نجد الرد على صاحبي المعتزلة – البلخي والجبائي – جاهزا لدى أبي حيان الأندلسي حيث قال بعد أن استطرد عدة تفسيرات لآية آل عمران المتقدمة ما نصه: ".. الظاهر أنها كرامة خص الله بها مريم ولو كان خارقا لزكرياء لم يسأل عنه وأما كون ذلك لنبوة عيسى فكان لم يخلق بعد"[2]، أما أحمد المراغي فنكاد نلمح الرد على اعتراضه في ثنايا كلام سلفه الرازي في معرض تفسيره للآية السابقة حيث يقول: "فحصول الرزق عندها – أي مريم – إما إن يكون خارقا للعادة أو لا يكون فإن قلنا إنه غير خارق للعادة فهو باطل، فهذا وجه الاستدلال بالآية على وقوع كرامات الأولياء"[3].

المطلب الثالث: موقف التوسط والاستبصار:

لقد اتخذت طائفة من أهل السنة والجماعة مذهبا وسطا بين نفي الكرامة وبين إثباتها وهذا المذهب يقر من حيث المبدأ وجود الكرامة إلا أنه يضع لها حدودا وضوابط لا تتعداها ويتصدر هذه الطائفة الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني الذي قدم رأيا يوهم في ظاهره الإنكار أحيانا، فقد عجب ابن السبكي في ترجمته للأستاذ من أقواله الموحية بالإنكار، يقول: "ومن غرائبه أنه ينكر كرامات الأولياء"[4]، وأكثر من ذلك يسوق بعض أقواله التي يفهم منها معنى الإنكار حيث يقول: "وكل ما جاز تقديره معجزة لنبي لا يجوز ظهور مثله كرامة (...) وإنما بالغ الكرامات إجابة دعوة أو موافاة ماء في بادية في غير موقع الماء أو مضاهي ذلك مما ينحط عن خرق العادة"[5].

أما ابن خلدون فكأنه يستشف من كلام الأستاذ ما يفيد الإنكار لذلك نراه يدرجه في قائمة المنكرين مضيفا إليه أبا محمد بن أبي زيد المالكي، يقول: "وقد ذهب

1- ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص: 92.
2- أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، دار الفكر – بيروت 1420 هـ 2/ 443.
3- الرازي: تفسير الرازي، دار الفكر، بيروت لبنان، 1985، 4/ 22-23.
4- اللالكائي: كرامات أولياء الله، مرجع سابق، ص: 18.
5- المرجع السابق، ص: 18.

إلى إنكاره – يعني إثبات الكرامة – الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي فرارا من التباس المعجزة بغيرها"[1].

وعلى الرغم من ما توحي به عبارات الإسفراييني من الإنكار للكرامة فإنهم ظلوا يتحفظون على صحة إدراجه في الطائفة المنكرة؛ مما دعاهم إلى التشكيك في الرواية عنه أحيانا وتأويل كلامه أحيانا أخرى، فهذا ابن تيمية بعد استعراضه للطوائف المنكرة للكرامة يضيف على استحياء حكاية الإنكار عن الأستاذ وعن ابن أبي زيد معا، يقول: "بل يحكى هذا القول – أي الإنكار – عن أبي إسحاق الإسفيريني وابن أبي زيد (...) ولكن كأن في الحكاية عنهما غلطا وإنما أرادوا الفرق بين الجنسين"[2]، وأكثر من ذلك فإن أحمد بن تيمية يستدرك ما نسب للأستاذ سابقا من إنكار الكرامة المنتهية إلى القول إن "الإسفراييني لا يبلغ قوله إلى درجة الإنكار كالمعتزلة"[3].

ومهما تعارضت الآراء بين الطائفتين المتقدمتين فإن إثبات الكرامة موضع إجماع بالنسبة لعلماء المسلمين وأدلته مسطورة في القرآن واردة في السنة مبسوطة في سير الأولياء وصالح السلف من المؤمنين، وفي دراسات المعاصرين إيماءات تشير إلى ثبوتها عقلا ونقلا؛ حيث استدل أصحاب الموسوعة الفقهية على جوازها بأنه "لا يلزم على وقوعها محال وكل ما كان كذلك فهو جائز"[4].

كما أثبت صاحب دائرة معارف القرن العشرين إمكانية خرق العادة بالنسبة للإنسان مع تباين الناس واختلاف المقامات، يقول: "فالولي تصدر منه الخوارق عن طريق الرياضة ومدار التفرقة بينهما – يعني الكرامة وغيرها من الخوارق – العمل الصالح وسيرة المنزهة عن الشوائب (...) وعلى هذا فمدار الحكم على الصلاح أو القرب من الله لا يصح أن يكون الخوارق بل الأعمال الصالحة والعزمات الصادقة"[5].

1- ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص: 7.

2- اللالكائي، كرامات أولياء الله، مرجع سابق، ص: 17.

3- المرجع السابق، ص: 18.

4- الموسوعة الفقهية، مرجع سابق، 217/34.

5- محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، مرجع سابق، ص: 125.

المبحث الثالث: الكرامة وإشكال الترقي والإخبات

للكرامات تجليات كثيرة ونماذج عديدة جعلت مريدي التصوف وأئمة السلوك يختلفون في شأنها اختلافا كبيرا فمال فريق منهم إلى منهاج الوسطية والاعتدال مجيزا للأولياء خرق العادة في حدود هامش التكريم الإنساني القاصر عن رتبة النبوة ودرجة الرسالة ومقام العصمة وذلك ما أوضحه أبو القاسم القشيري مبينا إطار الكرامات ومجال اختصاصها محددا هوامش تصرف الأولياء وخرقهم العادة بحدود شرعية مرنة فالكرامة قد تتجاوز نطاق العقل ولكنها لا تبلغ إلى ما يشبه المعجزة أو يقاربها وضرب لنا مثلا واضحا على أنواع الكرامات الممكنة مؤكدا أنها "قد تكون إجابة دعوة وقد تكون إظهار طعام أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمن عطش أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة أو تخليص من عدو، أو سماع خطاب من هاتف، أو غير ذلك من فنون الأعمال الناقضة للعادة، واعلم أن كثيرا من المقدورات اليوم يعلم أنه لا يجوز أن يظهر كرامة للأولياء وبضرورة وشبه ضرورة يعلم ذلك فمنها حصول إنسان لا من أبوين، وقلب جماد بهيمة أو حيوانا، وأمثال هذا كثيرة"[1].

ويذهب هذا المذهب نفسه أبو إسحاق الإسفراييني محددا للأولياء مجالا مخصوصا لا تزاحم معجزات الأنبياء ولا يلتبس بها ولا يبلغ مستواها، يقول: "المعجزات دلالات صدق الأنبياء ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي (...) فالأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعاء فأما جنس ما هو شبه معجزة للأنبياء فلا"[2].

وباستقراء النماذج الخارقة التي قدم رواد التصوف وخاصة هذين الرجلين نعلم أن الكرامة في أكثر الحالات مرتبطة بعناصر أساسية من أبرزها اتصاف المكرم بالولاية والصلاح واتصال حادثة التكريم غالبا بحالة من الاحتياج والاضطرار أو الظلم

1- المرجع السابق، 33/1.

2- النووي: بستان العارفين، مرجع سابق، ص: 77.

والإهانة ولذلك شواهد كثيرة من الشرع والدين، فمعلوم من القرآن والسنة أن الله تعالى يجيب المضطر ويكشف السوء ويدفع عن الذين آمنوا ولا يرد دعوة المظلوم[1].

أما الفريق الآخر فإنه كاد يخرج الكرامة عن حدود معقول البشر وطوقهم فسخرها لبعض المفاهيم الخاصة ساعيا إلى المبالغة في تقديس الأولياء عاملا على توسيع دائرة نفوذهم، ومن أبرز رواد هذا التوجه التاج السبكي الذي عدد في كتابه "الطبقات" نماذج من أنواع الكرامات مستفتحا نماذجه بإحياء الموتى وإجابة الدعاء وجذب القلوب والإخبار ببعض المغيبات وغير ذلك[2]، ولا نريد هنا أن نقول إن السبكي يبالغ في الكرامة فذلك أمر واضح، وإنما نود التنبيه إلى أنه أنزلها منزلة عالية؛ إذ جعلها تمتد إلى إحياء الموتى وهو أمر قد لا يقره العقل ولا يقبله ظاهر الشرع، فالله تعالى هو المحيي وهو المميت وهذان الاسمان من أسمائه تعالى فلا يجوز لبشر ولا يمكنه أن يتصف بهما، ولم يكرم الله بشرا بإحياء الموتى ضمن نص صريح صحيح - حسب علمنا - غير نبيه عيسى عليه السلام وكان ذلك الإحياء معجزة اقترنت بالتحدي وهي كذلك مشروطة بإذن الله ومشيئته[3]، فمسألة الموت والحياة مسألة خطيرة جدا لا يمكن صرفها أو نسبتها إلا للخلاق العليم، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، الذي يحيي العظام وهي رميم، فغير الله من المخلوقين لا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا فالله تعالى هو المحيي وهو المميت.

أما مستويات الكرامة فتبدو مرتبطة فيما بينها متداخلة؛ إذ يصعب أن تحد بحدود أو تضبط بدقة، وتلك طبيعة العلوم اللدنية والمواهب الغيبية ورغم ذلك يمكن القول ولو بشيء من التجوز والمجاز إن للكرامة مستويات عديدة، ولعلها الكاشف الأول عن تفاوت الأولياء والمريدين؛ إذ تعكس إلى حد بعيد مدى ارتباطهم بالسنة

1- نشير هنا إلى قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: 62].

2- مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، ط1985/5 ص:149-150.

3- قال تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 48]، وفي سورة المائدة 112 بصيغة أخرى.

ووقوفهم عند حدود الله وأمور الشرع، ويمكن التنبيه إلى أن هذا التفاوت هو ما حمل بعض أهل التصوف على الابتعاد عن الخوارق والكرامات مؤكدا أن عدم الخوارق لا يضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات لا ينقص ذلك مرتبته عند الله، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه[1].

وأكثر من ذلك رأى بعض أهل التصوف أن في الركون إلى الخوارق أنواعا من الغرور ونقصا في التعبد ورقة في الدين، ففي نظر بعض العارفين أن الكرامة حيضة الولي، وليست إلا لأطفال الأولياء[2]، وذلك ما أشار إليه ابن تيمية ولو تلميحا بقوله: "ولما كانت الخوارق كثيرا ما تنقص بها درجة الرجل كان كثير من الصالحين يتوب من ذلك ويستغفر الله تعالى كما يتوب من الذنوب كالزنى والسرقة وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها مع ظنهم أنها كرامات"[3].

وسنعرض فيما يلي لأبرز أنواع الكرامة بادئينها بالاستقامة التي تعتبر قوام الشرع وعماد الدين وأساس التصوف والسلوك.

المطلب الأول: الاستقامة والمراقبة:

الاستقامة لغة مصدر استقام استقامة وتعنى الاعتدال وحسن السلوك والأخذ في الطريق السوي، أما في الاصطلاح فإن أهل التصوف أعطوها عدة تعريفات واعتبروها هي أعلى مستويات التكريم الإنساني، ونجد أحمد بن عجيبة في شرحه للحكم العطائية يختزل الكرامة في الاستقامة قائلا: "الكرامة هي استقامة العبد مع ربه في الظاهر والباطن وكشف الحجاب عن قلبه حتى يظفر بقوة اليقين، ومخالفة الهوى والمعتبر عند المحققين هذه الكرامة، وهي الاستقامة على الدين وحصول كمال اليقين، أما خوارق العادات الحسية فإن صحبتها الاستقامة ظاهرا وباطنا وجب تعظيم صاحبها لأنها شاهدة له بالكمال، وإن لم تصحبها استقامة فلا عبرة بها"[4].

1- أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوي، مرجع سابق، 323/11 .

2- الشيخ سعد أبيه: كشف اللبس عن المسائل الخمس، مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.

3- أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوي 300/11.

4- أحمد بن عجيبة: إيقاظ الهمم بشرح الحكم، دار المعرفة، بيروت، 152/2.

لذلك ألح الجنيد في هذا الجانب على اشتراط معرفة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل من يروم أن يتكلم في الخوارق والسلوك، يقول: "علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا"[1]، فالمعول عليه والأساس الأول في الخطاب الكرامي هو الاستقامة الشرعية ومن هنا ربط أبو زيد البسطامي بين الكرامات وبين الوقوف عند حدود الله ربطا وثيقا، يقول: "لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ حدود الشريعة"[2].

ونبه الشيخ محمد اليدالي إلى أهمية الاستقامة في الدين وعرفها تعريفا دقيقا يعرب عن تمكنه من ناصية العلم وتفوقه في الجانب العرفاني، يقول: "الاستقامة: الاستواء في اتباع الحق على منهاج السداد من غير إفراط ولا تفريط وأركانها عمل بلا فترة وإخلال، وتوبة بلا إصرار ولا رجوع، وإخلاص بلا تشوف ولا ملاحظة، واستسلام بلا مناعة ولا معارضة، وتفويض بلا تردد، ملازمها واصل قطعا، وهي الكرامة الحقيقية، وما أكرم الله عبدا بكرامة خير من الاستقامة، ولهذا لم ينقل عن الصحابة رضوان الله عليهم إلا القليل من الكرامات"[3].

أما أحمد البدوي المجلسي الشنقيطي (ت: 1209 هـ) فقد ساق في منظومته لأنساب العرب أبياتا أوضح ضمنها بعض خصوصيات عمر رضي الله عنه بالتحديث والإلهام مشيرا إلى أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاءه كانوا من أهل الكشف والإلهام، غير أنهم مع ذلك لم يتسابقوا إلا في مقامات اليقين ومراتب الاستقامة ومدارج السلوك بعيدا عن التشوف للكرامة والمعونة، يقول[4]:

1- ابن تيمية: مجموع الفتاوي، 210/11.

2- المرجع السابق والصفحة.

3- الشيخ محمد اليدالي: شرح خاتمة التصوف، مخطوط ص: 320.

4- ابن القيم: مدارج السالكين، دار الكتب العلمية، بيروت ط1/1383.

وجاء في الحديث أن عمرا محدث وأن ذلك يرى
بخير أمة وكل الخلفا مكاشف له وصحب المصطفى
لا يتشوفون للكرامه بالكشف بل لنيل الاستقامة
وقل من بالكشف منهم اشتهر وبعضهم على الخلائق ظهر

المطلب الثاني: الفراسة والملاحظة:

نتناول هنا الفراسة بالكسر وهي لغة اسم من التفرس وهو التثبت والنظر يقال تفرست فيه الخير إذا تثبت منه ونظرت إليه[1]، والتفرس يطلق على التوسم أيضا، والفراسة قد تكون عادية تعرف بقرائن الأحوال، وقد تكون إلهامية يخلقها الله في القلب وهي المقصودة غالبا عند القوم، وقد عرفت بأنها محاولة الاطلاع على أحوال الناس عن طريق سيماهم وحسن سمتهم ومظهرهم الخارجي عموما.

وقد عرفها القشيري تعريفا صوفيا فقال: "الفراسة خاطر يهجم على القلب فينفي ما يضاده وله على القلب حكم، اشتقاقها من فريسة السبع وهي على حسب قوة الإيمان فكل من كان أقوى إيمانا كان أقوى فراسة"[2]، وذهب بعض المفسرين إلى أن القرآن أشار إلى ظاهرة التوسم والفراسة حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: 75] قال مجاهد للمتوسمين أي للمتفرسين[3]، والفراسة أنواع وأكثرها الفراسة الإيمانية "وهي نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل والحالي والعاطل والصادق والكاذب[4]. وكان عثمان رضي الله عنه صادق الفراسة، قال أنس بن مالك رضي الله عنه "دخلت على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكنت رأيت امرأة في الطريق تأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه:

1- انظر اللسان مادة: ف ر س.
2- القشيري: الرسالة القشيرية ، مرجع سابق، ص: 175.
3- ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، 2/ 503 .
4- المرجع نفسه، 2/ 504 .

يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه فقلت أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لا ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة"[1].

وأصل هذا النوع من الفراسة الإيمانية إنما هو نور يهبه الله تعالى لمن يشاء من عباده فيحي قلوبهم بذلك فلا تكاد فراستهم تخطئ، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [سورة الأنعام: 123] وذكر ابن القيم في كتابه مدارج السالكين أن شاه الكرماني حاد الفراسة لا يخطئ وكان يقول: "من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته"[2]، وقال بعضهم: "إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون"[3].

وذهب بعضهم إلى أن "الفراسة الشرعية نور إيماني ينبسط على القالب (...) ولكل مؤمن منها نصيب، ولكن لا يهتدي إلى حقيقتها إلا مؤمن صفا قلبه من الشواغل والشوائب"[4].

وهناك حديث شريف ينوه بمستوى إلهام المؤمن وفراسته إذ يقذف الله في قلبه ضياء الهدى نور الحكمة، فقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"[5].

المطلب الثالث: البشارة والمكاشفة:

لقد ورد في القاموس المحيط "الكشف والمكاشفة: الإظهار ورفع الشيء عما يواريه أو يغطيه"[1]، وقد أدرجه ابن تيمية ضمن أنواع الكرامة مشيرا إلى أنه يرتبط

1- ابن القيم: مدارج السالكين، مرجع سابق، 2/506-507.

2- المرجع السابق، 2/506.

3- القشيري: الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص: 174.

4- المرجع السابق، ص: 173.

5- هذا الحديث أخرجه الترمذي، 5/298 وفي تفسير سورة الحجر قال: حديث غريب، وقد رواه الطبراني في الكبير، الحديث رقم 7497 وأبو نعيم في الحلية 1/6 86. قال الألباني: ضعيف، السلسلة الضعيفة (1821).

بالعلم والمعرفة، محاولا أن يفرق بينه وبين الفراسة و الإلهام، يقول: "فما كان من الخوارق من باب العلم يسمى إلهاما أو فراسة ويسمى كشفا، فالسماع مخاطبات والرؤية مشاهدات والعلم مكاشفات ويسمى ذلك كله كشفا ومكاشفة[2] ويفهم من هذا أن الكشف نوع من الحدس والتوقع الموفق والشعور بالأمر قبل وقوعه فهو ضرب من الإلهام المتميز والإحساس المبكر التنبؤ ببعض المسائل بعيدا عن معرفة المستقبل أو الاطلاع على الغيب.

وإذا كانت المستويات الآنفة الذكر تعكس الكرامة حاضرة من خلال ثلاثة أطوار تكشف صدق العبد وإخلاصه في عبادة ربه فإن هنالك كرامات أخرى توضح ما لهذا العبد الصالح من حظوة وتكريم إلهي ، وهي في معظمها تلبية لحاجات معينة أو استجابة لمواقف خاصة مثل تحقيق أمنية أو إجابة دعوة أو تخليص من عدو أو إظهار طعام في زمن فاقة أو تفجير ماء أوان عطش وقد أورد السبكي من هذه الأنواع أربعة وعشرين نموذجا منها ما قد يلتبس بالسحر والكهانة وقد أوصل يوسف النبهاني هذه النماذج إلى المائة أو أكثر يقول: "أظن أن أنواع كراماتهم تربو على المائة"[3].

1- الفيروزابادي: القاموس المحيط، مادة كشف.

2- ابن تيمية مجموع الفتاوي 11/213-214.

3 - النبهاني: جامع كرامات الأولياء مرجع سابق 1/52.

خاتمة

وفي الأخير نذكر بأن الكرامة الصوفية إنما هي ثمرة لجملة من التدريبات الروحية والمجاهدات الصوفية عمادها اجتناب المحارم والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالنوافل والتحري في جانب المطعوم والمشروب والملبوس حرصا على اقتناء الطيبات وابتعادا عن الشبهات.

وقد نظَّر الفقهاء للكرامة الصوفية تنظيرا جادا وساقوا لها تعريفات دقيقة ووضعوا لها ضوابط وحدودا لا تتجاوزها كما جلبوا لها الأدلة المقنعة قرآنا وسنة واستنباط أئمة. وأكثر من ذلك بينوا ضروبها وأنواعها بما فيه الكفاية.

وقد جاء هذا الجهد بمثابة إعادة اعتبار للكرامة الصوفية التي أخذ الاعتناء بها يتناقص ويتلاشى كما عمل كذلك على رفع اللبس عن جانب من الشبهات المثارة بشأن هذا الموضوع.

زد على ذلك أنه يعد إحياء لمبدأ الإحسان الذي يعتبر الركن الثالث من أركان الدين والمنطلق الأول لتزكية النفوس وتطهير القلوب.

المصادر والمراجع

- ابن القيم: مدارج السالكين، دار الكتب العلمية، بيروت ط1/1383.
- ابن حجر، فتح الباري، دار المعرفة - بيروت، 1379.
- ابن منظور: لسان العرب دار صادر دون تاريخ.
- أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، دار الفكر - بيروت 1420 ه
- أحمد المراغي: تفسير المراغي، دار إحياء التراث، بيروت 1974.
- أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوي، مكتبة المعارف، الرباط.
- أحمد بن عجيبة: إيقاظ الهمم بشرح الحكم، دار المعرفة، بيروت.
- الألوسي: روح المعاني، دار إحياء التراث، بيروت.
- الرازي: تفسير الرازي، دار الفكر، بيروت - لبنان 1985.
- الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ط1/1325ه.
- السراج الطوسي: "اللمع في التصوف" صححه نيكلسون مطبعة ابريل ليدن 1914ه.
- سعد أبيه، كشف اللبس عن المسائل الخمس، مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.
- الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط2/1977.
- الطبري: جامع البيان على تأويل القرآن، مطبعة الحلبي 1954.
- الفيروز بادي: القاموس المحيط، دار الفكر للطباعة، بيروت 1995.
- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث، بيروت 1995.
- القشيري، أبو القاسم، الرسالة القشيرية ط2/1959مطبعة البابي الحلبي بمصر.
- اللالكائي: كرامات أولياء الله، ت: أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، ط1/1992.
- المختار بن بونه، وسيلة السعادة، مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.
- النابغة الغلاوي: "غرفة منجم في حل مشكلات إن همي" مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.
- النابغة القلاوي: نظم بوطليحية، مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.
- النبهاني: جامع كرامات الأولياء، مطبعة الحلبي بمصر، ط1/1962.

- النووي: بستان العارفين، دار الترمذي ط1/1992.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي: دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979.
- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، مطبعة مصفى محمد بمصر، شارع محمد عالي
- عبد المنعم الحفنى معجم مصطلحات الصوفية - دار المسيرة بيروت ط2 1987م.
- مجموعة من العلماء: الموسوعة الفقهية: وزارة الأوقاف الكويتية ط1/1995.
- محمد الحسن بن احمد الخديم: سلم المطالع، مطبعة النجاح، ط1/1998.
- محمد الكنتي: الطرائف والتلائد، المعهد الموريتاني للبحث العلمي.
- محمد اليدالي: شرح خاتمة التصوف، مخطوط بوراقة إسماعيل بانواكشوط.
- محمد اليدالي: فرائد الفوائد: مخطوط بحوزة الأستاذ الراجل بن أحمد سالم.
- محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، 1971 ط2.
- مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، ط5/1985.